الشعر

(تابع لما في الجزء السادس)

ومن نتبع كلام الشعرآء وجد من تبسطهم في المعاني وتفننهم في تصويرها ما لا يحيط به الحصر ولذلك نكتفي بما أوردناهُ في هذه العُجالة للمقابلة بين المعنى الشعريّ والمعنى العاميّ ومن أراد الوقوف على اكثر مما ذكرنا فليرجع الى كتب البديع فان معظم مدارها على هذه الفنون

على ان اكثر ما تجدهُ من هذا التفنن في المعاني من مخترعات المولدين وقد كان شعر المتقدمين عن الكثير منهُ بمعزل وانما كانت عناية المجيدين منهم اذا أخذوا في شقٍّ من الكلام ان يجعلوهُ تاماً مستوفي الجهات وصفاً كان أو غيرهُ فيعطونهُ حقهُ من السرد والاحاطة مع مراعاة وجوه المقابلة بين أطراف المعاني والربط بينها بموافقةٍ أو مضادّة أو التقفية عليها بنحو استدراكٍ أو تذييل مما لا يخرج عن السياق الطبيعي وذلك على غير قلقٍ في التنسيق ولا غلوٍّ في الوصف ولا ابعاد عن الحقيقة خلا ما تزيَّن بهِ أحياناً من الصور المجازية أو يُقرَن بها من ضروب التشابيه التي هي نوعٌ من الحقيقة وهو أظهر ما يمتاز بهِ شعر المتقدمين عن شعر المولدين ونحن نورد هنا شيئاً من كلامهم يظهر به مذهبهم فيهِ كقول الحطيئة

وفتيانِ صدقٍ من عديٍّ عليهمِ صفائحُ بُصرَى عُلِّقت بالعواتقِ
اذا ما دُعُوا لم يسألوا من دعاهمُ ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافقِ
وطاروا الى الجُرد العتاق فألجموا وشدّوا على أوساطهم بالمناطقِ

الصفائح السيوف وبُصرَى بلدةٌ بالشأم اشتهرت بصنع السيوف والجرد

الخيل القصار الشعر والعتاق الكريمة . يصفهم بالبسالة والتأهب للنزال والخفوف لنجدة الداعي على غير اهتمامٍ بمعرفتهِ ولا مبالاةٍ بما ورآءهُ من العظائم وهي نهاية ما يوصف بهِ الشجاع وكل ذلك من الوصف الطبيعي كما تراهُ الا انهُ استوفى المعنى فيهِ الى آخر دقائقهِ . وكقول عنترة

ولقد شربتُ من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المُعلَمِ
بزجاجةٍ صفراء ذات اسرّةٍ قُرنت بأزهر في الشمال مفدَّمِ
فاذا شربتُ فانني مستهلكٌ مالي وعِرضي وافرٌ لم يُكلَمِ
واذا صحوتُ فما أقصّر عن ندًى وكما علمتِ شمائلي وتكرُّمي

وصف حال شربهِ ووقتهُ وآنية شرابهِ ثم وصف نفسهُ في حال الشرب بانهُ اذا سكر بذل مالهُ على أصحابهِ ولكنهُ لا يتهتك ولا يخرج عن تصوّنهِ وعفافهِ ثم أتمّ المعنى بان ما ذكرهُ من السخآء غير مقصورٍ منهُ على حال الشرب ولكنهُ اذا صحا كان كذلك ومحصّل المعنى انهُ سخيٌّ بمالهِ ضنينٌ بعرضهِ وانهُ اذا سكر لم يخرجهُ السكر الى التهتك واذا صحا لم يخرجهُ الصحو الى الشُحّ فاستوفى وصف نفسهِ في الحالين . ومن هذا قول حاتم الطآئي

بُلينا زمانًا بالتصعلك والغنى وكلٌّ سقاناهُ بكأسيهما الدهرُ
فما زادنا بغيًا على ذي قرابةٍ غنانا ولا أزرَى باحسابنا الفقرُ

يقول انهم تعوّدوا شدة الدهر ورخآءهُ فهم اذا كانوا في ثروةٍ ويسر لم تبطرهم النعمة ولم يحملهم الغنى على البغي واذا أدركهم الفقر ومستّهم الضرورة لم يلجئهم ذلك الى الضراعة ولم يُزرِ بأحسابهم . فترى ان كل واحدٍ من هؤلآء الشعرآء قد عمد الى المعنى الواحد فاستوفى أطرافهُ وأحاط بجميع

وجوههِ حتى أصبح قائمًا بنفسهِ لا يعتورهُ نقص ولا تصاب فيهِ ثلمةٌ للنقد. وهذا أصلٌ من الاصول المعتبرة في الشعر وهو محطّ البلاغة وسعة تصرف الخاطر ولذلك لا يكاد يهجم عليهِ الا اكابر الشعرآء المجيدين من الجاهلية كانوا او المولدين. وهو في شعر المولدين اقلّ لبعد مأتاهُ وخشونة مركبهِ مع انصرافهم عنهُ الى العناية بالمعنى الجزئيّ وابرازهِ في الصور الغريبة ومن امثلتهِ في كلامهم قول ابرهيم بن العباس الصولي وهو من شعرآء الدولة العباسية

ساشكر عمرًا ما تراخت منيّتي ... اياديَ لم تُمنَن وان هي جلَّتِ
فتىً غير محجوب الغنى عن صديقهِ ... ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلَّتِ
رأى خلَّتي من حيث يخفى مكانها ... فكانت قذى عينيهِ حتى تجلَّتِ

خلتي فقري والقذى ما يقع في العين من غبارٍ ونحوهِ. وقول الشريف الرضي

ولقد وقفت على ربوعهمِ ... وطلولها بيد البلى نهبُ
فبكيت حتى ضجَّ من لغبٍ ... نِضوي ولجّ بعذليَ الركبُ
وتلفتت عيني فمذ خفيت ... عني الطلول تلفت القلبُ

اللغب الاعيآء والنِضو البعير المهزول. ومن هذا قول ابي الحسن الجُرجاني

وقالوا توصّل بالخضوع الى الغنى ... وما علموا ان الخضوع هو الفقرُ
وبيني وبين المال شيئان حرَّما ... عليَّ الغنى نفسي الابيَّةُ والدهرُ
اذا قيل هذا اليُسر ابصرتُ دونهُ ... مواقف خيرٌ من وقوفي بها العسرُ

وقول ابن حزم

لئن اصبحتُ مرتحلاً بجسمي ... فقلبي عندكم ابدًا مقيمُ
ولكن للعيان لطيفُ معنىً ... لهُ طلب المعاينةَ الكليمُ

ومن الطف ما جآء من هذا النوع قول الوأوآء الدمشقي

بالله ربكما عُوجا على سكني وعاتباهُ لعـل العتب يعطفهُ
وعرّضا بي وقولا في حديثكما ما بال عبدك بالهجران تتلفهُ
فان تبسم قولا في ملاطفةٍ ماضرَّ لو بوصالٍ منك تسعفهُ
وان بدا لكما في وجهه غضبٌ فغالطـاهُ وقولا ليس نعرفهُ

فانك ترى في هذه الامثلة كلها من استقلال المعاني واستكمال اجزآئها وارتباطهـا مع النظر في اعطاف كل معنى لاستنبـاط دقائقهِ ما لو استمرّ على مثلهِ شعرآء المولدين لم يتعلق بشعرهم شعر احد من الجاهليين . وعندنا ان هذا هو الاسلوب الذي كان ينبغي ان ينبه عليهِ جهابذة هذا الشأن في النسج على منوال الاوائل وهو عمود الشعر الصحيح ومحط رحال بلاغتهِ وميدآء حلبة المجيدين فيهِ . واذا استقريت شعر المولدين من اول صدر الاسلام فما يليهِ وجدت اوائلهُ وما كان منهُ لعصر الامويين وأوائل عهـد العباسيين اشبه بشعر الجاهليَّة لجريهم فيهِ على ما تلقوهُ من اسلوبهم خلا ما فضلوهم فيهِ من التـأنق في اختيار الالفاظ وما على شعرهم من مسحة الحضارة التي فاتت اشعار الاولين ثم تجدهُ بعد ذلك يباينهُ عصراً بعد عصرٍ بتبدُّل الذوق والخروج الى الصنعة والولوع بالإغراب واستكراه القرائح على النظم الى ان تجد اهلهُ قد صرفوا دقة نظرهم الى التشاغل بالمعاني الجزئية دون الربط بين جملة معاني الابيات وصار معظم عنايتهم بالتفنن في الخيـال المحض والامعان في ابتكار الغريب الى ما يتصل بذلك من الفنون البديعية مما ترى شرحهُ وامثلتهُ في اماكنهِ ثم انتقلوا الى الاشتغال بالجناسات

اللفظية والخطيّة لعجزهم عن استنباط المعاني وقصورهم عن الوصف الصحيح الا ما ندر بحيث اصبح الشعر صورةً لا معنى لها الى ما انتهى اليهِ في عصرنا هذا من الاكتفآء بالوزن والقافيـة على ما في كثيرٍ منهُ من الخلل حتى في هذا القالب المحسوس بحيث صرت ترى الزجل العاميّ وما اشبههُ خيراً من كثيرٍ مما تسمعهُ حتى من شعر بعض الخاصّة

والسبب فيما ذكرناهُ ان المولدين لما اوغلوا في اودية الشعر وصار صناعة يُتكسب بها واقبل الملوك والكبرآء على الشعر وأغلوا سيمتهُ واجازوا اربابهُ الجوائز السنية اخذوا يتبسطون فيهِ وتناولوا اغراضهُ من كل صوب فاتسع لهم المجال فيهِ ولا سيما مع كثرة الاغراض واختلافها مع ما تقتضيهِ حال الملك والبسطة في الغنى واتساع آلات الدولة ومرافق المدنية وتواتر الغزوات والفتوح ومع اختلاف ما يكتنفهم من الاشيآء التي كانوا يتناولونها في الاستعارات والتشابيه مما لم يكن للبدويّ فيهِ يدٌ ولم يقع تحت حسّهِ . وذلك فضلاً عن ان البدويّ لم يكن يتكلم الا في اغراضهِ الخاصة ووصف الشؤون التي وقعت لهُ والشاعر الحضريّ لما كان مدعوًّا الى النظم فيما هو ورآء شأنهِ الخاص من وصف رونق الملك ومظاهر الابهة وزخارف الحضارة واشيآء الترف اخذ ينظر فيما حولهُ واختلق بدائع الصور وغرائب التماثيل فتفنن في المعاني بما لم يبلغهُ البدوي ولم يكن لهُ اليهِ سبيل ولذلك غلبت على شعر المولدين الصنعة والتفنن في استنباط المعاني النادرة وابرازها في القوالب الناصعة من اللفظ دون الصدور عن تلقين الطبع ووحي القريحة الصرفة . ولهذا فانك كثيراً ما ترى تفاوتاً في شعر الشاعر الواحد بين ان ينظم في اغراض نفسهِ ويتكلم

فيما يبعثهُ عليهِ طبعهُ او يتوخى مدحاً لاحد الرؤسآء او تهنئةً او غير ذلك من الاغراض المستدعاة التي يسخّر فيها قريحتهُ للكلام في امورٍ ليست في شيءٍ من غرضهِ ووجدانهِ او يتوخى مباراة سائر الشعرآء في اختراعاتهم للمعاني وايغالهم في طلب الغريب منها . وهذا لا تكاد تراهُ في شعر المتقدمين لانهُ لم يكن يعترض قرائحهم هوى ممدوح ولا ارضآء مستجدًى ولم يكن بينهم مباراةٌ الا في الكشف عن المعاني الطبيعية والاحاطة ببليغ الاوصاف وخفيّها مما تمثَّل بهِ الصورة الطبيعية بابلغ ما تصل اليهِ الملكة اللسانية . وذلك لا يقتصر على المعنى الواحد ولكنهُ كثيراً ما يتعدى الى تعداد صفاتٍ كثيرة يجرون بها على مثل ما ذكر وهذا ولا شك اعزّ منالاً واوعر مسلكاً والفائزون بغررهِ قليل نذكر منهُ قول زينب بنت الطثرية ترثي اخاها يزيد

فتًى قُدَّ قدَّ السيف لا متآزفٌ ولا رَهِلٌ لبّاتهُ وبآدله

المتآزف القصير الخطو والرَهِل المسترخي اللحم واللبّات اعالي الصدر والبآدل جمع بأدلة وهي لحمةٌ بين الابط والثندوة

فتًى ليس لابن العمّ كالذئب ان رأى بصاحبهِ يوماً دماً فهو آكلهُ
يسرُّكَ مظلوماً ويرضيك ظالماً وكل الذي حمَّلتهُ فهو حاملهُ
اذا جدَّ عند الجدّ ارضاكَ جدُّهُ وذو باطلٍ ان شئت الهاكَ باطلهُ
فتًى لا يرى ما فاتهُ مهلكاً لهُ ولا الخلدَ ما ضُمَّت عليهِ انامله
وقد كان يروَى المشرفيُّ بكفهِ ويبلغ اقصى حَجْرة الحيّ نائلهُ

الحَجْرة الناحية والنائل العطآء

اذا القوم أمُّوا بيتهُ فهو عامدٌ لأحسن ما ظنّوا بهِ فهو فاعلهُ

فانظر الى هذه الاوصاف البديعة التي تمثل صاحبها في اشرف حال من كمال الخَلق والخُلق والاستيلآء على المحامد وعلوّ الهمة وكرم الخلال من غير ان ترى فيها شيئاً من الغلوّ الذي تراهُ في شعر المولدين . لا جرم ان مثل هذا الوصف اوقع في النفس واجدى في باب المدح من تلك المبالغات السمجة التي ترى عليها مسحةً من الكذب ولا تفيد شيئاً في تصوير صفة الممدوح اذ لا يعيرها السامع جانب التصديق ولا يتصور فيها شيئاً من الحقيقة ولكنها مجرد تلاعبٍ في الكلام لا يخرج في نظر الناقد عن باب الفكاهة والملحة بل ربما خرجوا بالكلام الى حد الهذيان كقول المتنبي

وأُقسمُ لولا أنّ في كل شعرةٍ لهُ ضيغماً قلنا لهُ انت ضيغمُ

يقول لولا ان في كل شعرةٍ من ممدوحهِ اسداً اي لولا ان شجاعتهُ تزيد على شجاعة الاسد بعدد شعر بدنهِ لسماهُ اسداً . وانظر اين هذا من قولهِ

ولولا احتقار الأُسد شبهتهم بها ولكنها معدودةٌ في البهائمِ

فانهُ ذكر هنا وجهاً صحيحاً لانهُ فضّلهم على الأُسد بالانسانية لا بكونهم اشجع منها فضلاً عن ان تقوم كل شعرةٍ منهم مقام اسد . وكقول الآخر

لو لم تكن نية الجوزآء خدمتهُ لما رأيت عليها عَقدَ منتطقِ

الجوزآء من صور الكواكب في وسطها ثلاثة انجم مصطفّة يسمونها نطاق الجوزآء يقول لولا ان الجوزآء تنوي خدمة الممدوح لما عقدت النطاق في وسطها وهو كالمئزر يشدّهُ الخادم في وسطهِ . واصحاب البديع يرون هذا من حسن التعليل وقد ذهلوا عما فيهِ من الافراط في الغلوّ حتى صار اشبه بالهزؤ منهُ بالمدح . وقول ابي تمام

بيومٍ كطول الدهر في عرض مثلهِ ووجديَ من هذا وهذاك اطولُ

اراد ان يبالغ في طول اليوم فجعلهُ كطول الدهر ثم لم يكفهِ حتى جعل لهُ عرضاً ولم يُسمع ان للزمان عرضاً الا في هذا البيت. واغرب منهُ قول الآخر

اسكرُ بالامس ان عزمتُ على الـ شرب غداً انَّ ذا من العجبِ

وصدق انهُ من العجب ولكن اعجب منهُ ان يخترع المرء مثل هذه الخرافة ثم يتعجب منها. ومن ذلك قول الحلي

لو قابل الاعمى غدا بصيرا ولو رأى ميتاً غدا منشورا

ولو يشا كان الظلام نورا ولو اتاهُ الليل مستجيرا

آمنهُ من سَطوات الفجرِ

وكل هذا مما لا يقبلهُ العقل ولا يحسن في الذوق ولا فيهِ شيءٌ من الاختراع انما هو ان يعمد الشاعر الى الاحوال الطبيعية وهي بين يديهِ وفي ذهن كل احد فينقضها او يخرجها الى ما وراء حدودها فيقول فلانٌ اذا زجر الريح مثلاً وقفت عن مسيرها واذا غضب على الشمس لم تشرق ولو شاء لجعل البحر في كفهِ ولو ضرب بسيفهِ الجبل لقدَّهُ وقس على ذلك مما لا يصعب على الفكر الانتقال اليه بل الذي عندنا ان كل ذلك مهما اختلفت صورهُ لا يُعَدّ الا معنًى واحداً اذ حاصل هذه الصور كلها امرٌ واحد وهو اخراج الاشياء عن مطبوعها

(ستأتي البقية)

اللؤلؤ

ما برح اللؤلؤ من أقدم زمن محلاً لتنافس الملوك والكبراء وأرباب الثروة والترف ولعلهُ الصنف الوحيد من المركَّبات الحيوانية الذي ضارع